يقول تعالى : { قل } يا محمد { إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين } أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك لأني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته فلو فرض هذا لكان هذا ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا كما قال D : { لو أراد ا أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو ا الواحد القهار } وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : { فأنا أول العابدين } أي الانفين ومنهم سفيان الثوري والبخاري حكاه فقال ويقال أول العابدين الجاحدين من عبد يعبد وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قسيط عن بعجة بن زيد الجهني أن امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضا فولدت له في ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان Bه فأمر بها أن ترجم فدخل عليه علي بن أبي طالب Bه فقال : إن ا تعالى يقول في كتابه { وحمله وفصاله ثلاثون شهرا } وقال D : { وفصاله في عامين } قال : فو ا ما عبد عثمان Bه أن بعث إليها ترد قال يونس : قال ابن وهب : عبد استنكف وقال الشاعر : .

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما .

وهذا القول فيه نظر لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره إن كان هذا فأنا ممتنع منه ؟ هذا فيه نظر فليتأمل اللهم إلا أن يقال : أن إن ليست شرطا وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما في قوله تعالى : { قل إن كان للرحمن ولد } يقول : لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين وقال قتادة هي كلمة من كلام العرب { إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين } أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي وقال أبو صخر { قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين } أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له وأول من وحده وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال مجاهد { فأنا أول العابدين } أي أول من عبده ووحده وكذبكم وقال البخاري { فأنا أول العابدين } الانفين وهما لغتان رجل عابد وعبد والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع وقال السدي { قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين } يقول : لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولدا ولكن لا ولد له وهو اختيار ابن جرير ورد قول من زعم أن إن نافية ولهذا قال تعالى : { سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون } أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد فإنه فرد أحد صمد لا نظير له ولا كفء له فلا ولد له .

وقوله تعالى : { فذرهم يخوضوا } أي في جهلهم وضلالهم { ويلعبوا } في دنياهم { حتى

يلاقوا يومهم الذي يوعدون } وهو يوم القيامة أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم قوله تبارك وتعالى : { وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله } أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه { وهو الحكيم العليم } وهذه الاية كقوله سبحانه وتعالى : { وهو ا في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون } أي هو المدعو ا في السموات والأرض { وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما } أي هو خالقها ومالكها والمتصرف فيها بلا مدافعة ولا ممانعة فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما { وعنده علم الساعة } أي لا يجليها لوقتها إلا هو { وإليه ترجعون } أي فيجازي كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ثم قال تعالى : { ولا يملك الذين يدعون من دونه } أي من الأصنام والأوثان { الشفاعة } أي لا يقدرون على الشفاعة لهم { إلا من شهد بالحق وهم يعلمون } هذا استثناء منقطع أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له ثم قال D : { ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن ا فأنى يؤفكون } أي ولئن سألت هؤلاء المشركين با العابدين معه غيره { من خلقهم ليقولن ا } أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ولهذا قال تعالى : { فأنى يؤفكون } .

وقوله جل وعلا : { وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون } أي وقال محمد صلى ا عليه وسلّم قيله أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه فقال يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون كما أخبر تعالى في الاية الأخرى : { وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا } وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود Bه ومجاهد وقتادة وعليه فسر ابن جرير قال البخاري : وقرأ عبد ا يعني ابن مسعود Bه { وقال الرسول يا رب } وقال مجاهد في قوله : { وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون } قال يؤثر ا D قول محمد صلى ا عليه وسلّم وقال قتادة : هو قول نبيكم صلى ا عليه وسلّم يشكو قومه إلى ربه D ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى : { وقيله يا رب } قراءتين إحداهما النصب ولها توجيهان : أحدهما أنه معطوف على قوله تبارك وتعالى : { نسمع سرهم ونجواهم } والثاني أن يقدر فعل وقال قيله والثانية الخفض وقيله عطفا على قوله : { وعنده علم الساعة } وتقديره وعلم قيله وقوله تعالى : { فاصفح عنهم } أي المشركين { وقل سلام } أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا { فسوف يعلمون } هذا تهديد من ا تعالى لهم ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين ا أفواجا وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب وا أعلم آخر تفسير سورة الزخرف